إلهام منصور

# حينَ كنتُ رجلاً

## سيرة ثالثة

WHEN I WAS A MAN

By Ilham Mansour

First Published in August 2002

Copyright # Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.

BEIRUT- LEBANON

info@elrayyesbooks.com . www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21 112 1

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: آب/ أغسطس 2002

## المحتويات

توطئة
الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث

## توطئة

كنت أشتغل في المرحلة الأخيرة على مفهوم القول وقمتُ بمحاولة تحت عنوان «هل شارف القول الذكوري على النهاية؟ ». بعدها، حاولت أن أبحث عن مقومات قولٍ نسوي وكتبت بحثاً صغيراً تحت عنوان : «نحو تأسيس قولٍ نسوي ». هذا النص الأخير ألحقته بالسيرة الحالية ليكون مدخلاً لها . لهذا السبب أنصح القارئ بأن يبدأ قراءة هذه الرواية ـــ السيرة من الملحق ليعرف في أي مناخٍ فكريٍ كتبتها وليعرف لماذا استعملت بعض المصطلحات غير المتعارف عليها.

أما العنوان، عنوان هذه السيرة فله قصة أخرى أصر على روايتها وذلك إرضاءً لضميري ولإعطاء كل ذي حقٍ حقه؛ كنا، مجموعة من الأصدقاء في مقهى «السيتي كافيه». كنا نتناقش، كالعادة، بأمور عديدة حين خرج رشيد الضعيف على الموضوع الذي كنا نتحاور فيه ليقول: «طالع عبالي أكتب رواية بعنوان: عندما كنت امرأة». كنت في تلك المرحلة أكتب روايتي هذه من دون أن أجد لها عنواناً، كانت نصاً يبحث عن عنوانه . كان الأقرب إلى ذهني العنوان التالي : «هبى في رحلة الذكورة» أو «هبى في رحلة الهو» كي يتناسب مع عنوان السيرة الثانية الذي هو: «هبى في رحلة الجسد». لكن حين سمعت قول الصديق رشيد شعرت أن سلكاً كهربائياً اخترق دماغي وقلت لنفسي، كما قال أرخميدس : «أوريكا! وجدتها». توجهت مباشرة إلى رشيد قائلة : «هذا هو العنوان الذي أبحث عنه للرواية التي أكتب، طبعاً مع فارقٍ واحد هو الفارق بيني و بينك، فيصبح: «عندما كنت

رجلاً». لا أظن أنك كنت في يومٍ من الأيام امرأة، لكني لا أجزم في ذلك، أنتَ أدرى بأمورك. على كل حال روايتي شارفت على النهاية و «ستضبط» الآن أكثر بسبب هذا العنوان الذي وكما يقال في الدارج أتى «حفر وتنزيل». أشكرك». فما كان من رشيد إلا أن وافق مشترطاً أن أذكر ذلك في المقدمة. وعدته وها أنا أفي بوعدي. هو توضيح كنت سأقوم به حتى ولو لم يشترط رشيد ذلك لأنني لم أسرق يوماً، كما غيري، وهم كثر في العالم الثقافي العربي، ولم أستعن بكلمة أو بنص لغيري إلا وذكرت صاحبه. لم أسرق من الأموات فكيف بسرقة الأحياء. صحيح أن العنوان تغير قليلاً، لكنه بقي ضمن الإطار المفهومي الذي رسمه رشيد.

الفصل الأول

I

حين خلَّصتْ نفسها من ذكورتها المناضلة، ما كانت تذكر تماماً متى تلبّست هذه الذكورة، لا تذكر إلا محاولاتها المستمرة للهروب من ذاتها، محاولاتها الدائمة لخلع جلد ها. كانت تشعر بالبرد لكنها كانت تكابر. غريب كيف لا نرى الواقع الذي نعيش فيه، دائماً نراه حين نخرج منه، حين نبتعد عنه. هذا ما حدث لهبى حين استعادت ذاتها على حقيقتها، يعني حين عادت من جديد لتصبح إنسى، خطرت ببالها فكرة استوقفتها : «كم من السنين هدرت كي أصل بالفعل إلى ما وراء الخير والشر؟ كم أحسد «نيتشه» الذي وصل قبلي إلى تلك القمة حيث الهواء نقي لا تصل إليه أبخرة التلوث الصاعدة من حيث يعيش الناس الأخلاقيون المهذبون الذين ما زالوا يمارسون الخير ويبتعدون عن الشر».

يقول بارت في كتابه «الدرجة صفر للكتابة » ما معناه أن الراوي يستعمل صيغة الغائب لكنه يدل بإصبعه على القناع. أي أن الراوي يحاول لعبة المرآة. يبدو أن هبى ترفض فكرة القناع ولعبة المرايا ولهذا السبب ستستعمل صيغة المتكلم المباشرة وستوفر على إصبعها هذا العناء المجاني الذي وإن كان من شروط اللعبة الكتابية على ما ي بدو، فهو لا يروق لمزاجها. حين كتبتُ المقطع السابق غضبت هبى وقالت لي : «إن أكملت الكتابة بهذه

الصيغة فلن تحصلي على أية معلومة مني، لذا أنصحك بأن تعطيني القلم وتستريحي حتى أنتهي، ثم تهتمين أنت بشؤون الطباعة والنشر إن أردت ذلك». سلمتها القلم واسترحت.

2

لا أذكر متى خرجتُ من إنسويتي، أَنا متأكّدة أنني ولدت إنسى، جسدي يقول ذلك، الأمر بديهي لا يحتاج إلى برهان أو استدلال . متى خرجتُ من جلدي؟ لا أذكر . كانوا يردِّدون دائماً أمامي تعليق جدي لأبي حين ولدت؛ يبدو أنه استغرب الأمر كثيراً وقال لما أُبلغ أن كنَّته أنجبت طفلة : «مش معقول، مش معقول، ولدت فعلاً؟ انتهى الأمر؟ ». لم يكن يرى أنه من المعقول أن تأتي بنتٌ بعد ولدين ذكرين . هل سمعتُ ذلك التعليق الذي حتماً لم أفهمه في حينه، ولأنني لم أفهمه رميته في لاوعيي كي يحرك كل سلوكي اللاحق؟

لا أذكر جدي هذا، ذاكرتي لا تحفظ له أية صور ة، لقد توفي قبل أن تصبح ذاكرتي قادرة على التسجيل، أو أنه توفي في مرحلة كان يتم فيها التسجيل على الناسية . صحيح أن صورته هي الآن غائبة عني، لكني ما زلت أسمع الصوت الذي ردد منذ سنين : «مش معقول، مش معقول »، لأني، كل حياتي، حاولت دخول هذا المعقول، وللأسف الشديد لم أنتبه إلا مؤخراً أن هذا الدخول في المعقول لم يكن إلا الخروج منه . أذكر تماماً متى وعيت ذلك وأذكر الحدث الذي نخع كياني ليردني إلى حالي، ليعيدني من غربتي . ما أروع أن يتصالح الإنسان مع حاله، أن يتحد مع ذاته! حينذاك ينبت له جناحان ليصبح فراشة لا تقتات إلاّ من نور الشمس.

3

جسدي هذا الذي أنا به إنسى هو الذي أيقظ رجولتي . كنا في صيف السنة الرابعة أو الخامسة من عمري في ضيعتنا التي لا أذكر أننا أمضينا صيفاً إلا فيها وفي بيت جدي الذي أصبح فيما بعد بيت أهلي. هو بيت من الطراز القديم حيث الجدران السميكة جداً من التراب المكسو بقشرة من الكلس، وحيث السطح من القرميد الأحمر الجميل . الطابق الأرضي كان من العقد والقناطر حيث المساحات الفارغة تنقسم إلى قسمين، أحدهما يغطيه ويظلله

العريش المرفوع على سقالة خشبية كنا نتسلقها لنقطف عنقوداً بدأت حباته تلوَّح باللون الأحمر. أذكر أن ذلك التحول كان يحدث قرابة عيد مار الياس الحي في العشرين من شهر تموز. أذكر ذلك لأن لعيد مار الياس، في ضيعتنا، أهمية كبيرة، حيث يحج الناس إلى كنيسته البعيدة عن الضيعة ويقدمون المواشي التي تنحر أمام الباب، ويعودون بعد أن يمضوا ليلتهم هناك نائمين على الأرض ليرووا القصص الخارقة عن ذلك القديس.

أما القسم الثاني من الفراغ فكان حديقة تزرع فيها والدتي، في الصيف، كل أنواع الخضار. كان يفصل بين الفراغين وردة جورية كبيرة، عطرها يملأ الفضاء حين تزهر . كان في ذلك الفراغ، أيضاً، شجرتا رمان، حين كانتا تزهران يتحولان إلى مزهريتين وسط الحديقة. وما كان، بشكل خاص، يعني لي الكثير من دون أن أعرف لماذا، هو شجرة البيلسان في طرف الحديقة، كانت تملأ الزاوية بأغصانها الوارفة وبزهرها الأبيض الناعم ذي الرائحة المميزة . تلك البيلسانة كانت بقرب الحائط المشترك بيننا وبين الجيران . كان يكفينا أن نتسلق أغصانها حتى نصبح على سطح الجيران حيث نعبث بما تكون الجارة ناشرة هناك من تين مشرح أو نعناع أو غيرهما من دبس الرمان أو شراب البندورة . ويعلو صراخها الذي لم يكن إلا مجموعة من الشتائم، فنهرب إلى بيتنا مستعملين أغصان البيلسانة إياها التي من كثرة ما تسلقناها أصبحنا نركض عليها كأنها سلّم.

لكن ما كان يميز حديقتنا بنوعٍ خاص هو أن قناة المياه الجارية التي كانت تأتي من نبع في أعلى الضيعة لتروي البساتين التي كانت كلها في أسفل الضيعة، كانت تمر فيها وكنا نستفيد منها من خلال فتحتين، واحدة في الحديقة، على كعب شجرة البيلسان ونسميها العين، والثانية تحت الدالية ونسميها البحرة . تلك المياه الجارية كانت مياهاً عذبة نشرب منها بعد أن يُخضعها والدي الطبيب لتحليلات مِخبرية في بداية كل صيف . كل فتحة من الفتحتين كانت لا تزيد عن المتر طولاً ونصف المتر عرضاً وهو عرض القناة . في الطرف الثاني من كل فتحة، باتجاه جريان المياه كان يوجد نوع من «شبكان» حديدي نسند إليه الفاكهة والخضار لغسلها وتبريدها. تلك المياه كانت حارة في الشتاء يتصاعد منها البخار وباردة في

الصيف، فنستعملها كبراد لأن الكهرباء لم تكن قد وصلت إلى تلك الضيعة النائية من منطقة بعلبك ـــ الهرمل.

بما أن تلك المياه كانت تمر في أرضنا، كان يحق لنا أن نستعمل قسماً منها لري مزروعات حديقتنا. كيف كان يتم ذلك؟ كانت والدتي، بمساعدة أحد الأقارب، وكانوا كثراً يتوافدون كل يوم ليجلسوا معنا تحت العريشة أو في الحديقة وتدور الأخبار والروايات حول كل شاردة وواردة. إذن كانت والدتي تضع «الدفة» وهي كنايــة عن قطعة خشبية مسطحة، أمام الشبكان الحديدي في العين لــ«طبن» المياه التي تعلو لأن مجراها قد أغلق فتخرج إلى الحديقة وتتوزع في أثلام مهيأة لذلك. حين كانت الأرض قد شبعت كما يقول أهل الضيعة، يذهب أحدهم ويرفع الدفة الخشبية من أمام الشبكان فتعود المياه إلى مجراها العادي.

4

في ليلة من ذلك الصيف الرابع أو الخامس من سني عمري، اتفقت مع إخوتي وبعض الأولاد الأقارب على «طبن» المياه وتركها حتى الصباح لتمتلئ الحديقة بالماء وتتحول إلى بحيرة للسباحة. قمنا بما يجب، وفي اليوم التالي استيقظنا باكراً جداً، قبل الأهل بوقت طويل ونزلنا إلى الحديقة التي كانت قد تحولت فعلاً إلى بحيرة . أتى الرفاق، ومن دون ضجة، خلعنا ثيابنا وغطسنا في الماء. غرقت أقدامنا في الوحل فتعكَّرت المياه وأصبحت تستر ما هو غارق من أجسادنا فيها وهو القسم السفلي حيث الأعضاء الجنسية. كنا فرحين جداً كأننا حققنا إنجازاً مهماً. لكن سرعان ما انتهت فرحتنا إذ بدأ يتوافد إلى بيتنا أهالي الضيعة للاستفسار عن سبب انقطاع المياه عن بساتينهم. حين رأونا علا صراخهم: «ماذا تفعلون يا ولاد الــ....، هذا لا يجوز، أين أهلكم؟ ». استفاق الأهل ونزلوا ركضاً إلى الحديقة وأخذوا يهددوننا من بعيد. توجه أحد أهالي الضيعة إلى العين وسحب الدفة . أما نحن فقد تراكضنا لنخرج من المياه ونهرب. هنا وقعت الحادثة التي مازلت أذكرها والتي، أعتقد، أنها كانت بداية لتساؤلات كبيرة حول شخصيتي.

خرجنا من المياه، كنا كلنا عراة تماماً، فما كان من أمي إلا أن نهرتني : «يا عيب الشوم». أخذتني بعنف من يدي وألبستني بسرعة اللباس الذي يستر القسم الأسفل من

جسدي. وضعت «ورقة التين». فعلت ذلك معي وحدي، لم تؤنب إخوتي الصبيان، بل تركتهم يعرضون أجسادهم العارية أمام الجميع . وهم كانوا يتمخترون كالديكة «الشبعاني خراء» كما يقول أهل ضيعتنا . منذ ذلك الحادث تم الربط بين جسدي والعيب . كان أول مفهوم أخلاقي اكتسبته، لكنه مفهوم سيغير مجرى حياتي كلها؛ جسدي هو العيب والسبب واضح، هو عيب لأنني لا أملك العضو الذي يميز جسد الصبي عن جسدي . ما كنت أفهم لماذا الربط بين بنية جسدية وبين الأخلاق. كنت قبل ذلك الحادث ما وراء الخير والشر، هو الذي أدخلني إلى عالم الأخلاق، وكان الدخول إليه من باب الجسد.

منذ ذلك الحين بدأت أكره جسدي، بدأت أتنكر له، بدأت أتنك ر لإنسويتي لأنها تجسد العيب. هل كان هو الحادث الذي جعلني أسير على درب الرجولة، هل كان هو الحادث الذي بدأت به ومعه أتحول إلى رجلة؟ ربما . وربما كان لأحداث أخرى، لا أذكرها، تأثير في هذا التحول . لكن موضع العيب، في تلك المرحلة، كان أسفل البطن فقط إذ إن أعلى الجسد لم يكن مهماً. حين نهرتني أمي وصرخت: «يا عيب الشوم» لم تستر من جسدي إلا القسم السفلي، سترت الاختلاف، لأن جسدي، في القسم العلوي منه كان تماماً كجسد الصبي، إذن لا عيب فيه . لكن هذا العيب الثاني سيظهر يوماً وسأستره من تلقاء ذاتي، من دون أن يكون لوالدتي دور مباشر في ذلك. الأمر سيكون طبيعياً لأنني كنت قد بدأت التحول إلى رجلٍ. ذلك التحول لم يكن سهلاً، كان دائماً ملتبساً . قهر الطبيعة كان دائماً عملاً شاقاً، يذهب، في نهاية التحليل، إلى رفضها.

أذكر أنني بعد ذلك الحادث أهملت لعبتي التي كنت فبركتها من القماش الملون والقطن لأجعل منها شبه دمية تكون في اللعب ابنتي أو تلميذتي أو أختي أو ... أهملت كل ذلك وأصبحت لا أفارق إخوتي الصبيان ورفاقهم، أتسلق الشجر معهم، أركض مثلهم وأبذل جهداً خارقاً كي أتفوّق عليهم في الألعاب التي كنا نقوم بها . كانوا أحياناً يحاولون إبعادي وكنت أصر على المشاركة والمنافسة. أحياناً كنت أتفوق عليهم، لكني كنت قد حفظت أنه علي أن أستر عورتي في الألعاب التي كانت تتطلب التعري كالسباحة مثلاً.

انتهى ذلك الصيف وعدنا إلى المدينة، إلى المدارس، وأصبح همي أن أتفوق في الدراسة كما يفعل أخي البكر الذي لم يحتل يوماً إلا الموقع الأول. لم يعد مرة إلى البيت إلا وبيده الإثبات على حيازته المرتبة الأولى وفي كل المواد . شعرت بضرورة الإثبات للأهل ولنفسي أن الاختلاف في الجسد لا ينتج اختلافاً في الذكاء. بدأت باكراً أميل إلى الرياضيات التي كانت تشكل الحيز الذي ينجح فيه الصبي أكثر من البنت. هل كنت أحب الرياضيات بسبب ميل طبيعي أم كنت أحبها تحدياً؟ لا أدري لكني أصبحت لاحقاً مميزة فيها إلى درجة أن أحد الأساتذة، بعد أن أنهيت صف البكالوريا، كان يقول: «لقد مر عندي تلميذان مميزان، هبى وأحد الشبان في مدرسة للصبيان » كان يدرس فيها. مرة أخرى حين علم مني أنني أدرس علم النفس في الجامعة قال لي بكل جدية : «هبى لقد أخطأت الاختيار، كان عليك أن تتخصصي في الرياضيات». لم يكن يعلم لماذا اخترت علم النفس.

كنت إذن أرفض حالي وأرفض جسدي الذي يجعل مني إنسى (وهنا استعمال كلمة امرأة هو الأصح ) لكن الأمر لم يكن سهلاً إذ إن والدتي لعبت دوراً مهماً في اللَّبس الذي كنت أتخبط فيه. كان يهمها جداً أن أكون مميزة في المدرسة، كانت تفخر بذلك، لكنها كانت تفخر أكثر بإبراز جمالي وتحاول دائماً أن تعرضني أمام الآخرين بأجمل الملابس وأحلى التسريحات. كنت أحب هذه الأناقة وأكابر. كنت أقف أمام المرآة وأستمتع بشعري وملابسي وأشبع نرجسيتي. لكن ما أن يفاجئني أحد حتى أظهر عدم اكتراثي لما كنت أتأمله في المرآة وأحاول التركيز على ما يبعدني عن حالي.

6

أمضيت المرحلة الابتدائية من الدراسة على هذه الحال من التأرجح بين رفض علني وقبولٍ سري للذات، وتكللت تلك المرحلة بنجاحي في الشهادة الابتدائية. بدأت أتقبل فكرة أن أكون إنسى وأن أكون، في الوقت نفسه، ناجحة في ما يعتبر مجالاً للرجل . تم ذلك لأن العيب المتعلق بالجسد انسحب، في تلك الفترة، على أخويّ، فما عادا يعرضان جسديهما إلا والقسم السفلي منهما مستّر بس بب ظهور بعض الوبر على عضويهما . كانا يتمختران في الصيف بـــ «الشورط» والقسم الأعلى من جسديهما عارٍ . كنت أحياناً أفعل مثلهما . لكن

سرعان ما تغير الوضع، إذ بدأ يظهر تحول في جسدي، تحول أعاد إلى ذاكرتي ذلك الحادث الأول الذي نبهني إلى مفهوم العيب.

استفقت ذات يوم من تلك المرحلة وشعرت بألم خفيف في أحد ثديي، مددت يدي أتلمس مكان الألم فوجدت، تحت الحلمة، تورماً صغيراً يساوي حجم العدسة لكنه صلب . انتابني الخوف للوهلة الأولى لكني حدست بما يحدث لي . لم أخبر أمي بالأمر لأنني كنت لا أزال أذكر ردة فعلها العنيفة أمام عريي . انتظرت المساء، انتظرت عودة والدي، لأذهب إليه وأخبره. حين فحصني ابتسم، قبلني على جبيني وقال : «لا تخافي، الأمر طبيعي ». تأكدت من حدسي، لكن هذا التأكد جعل جسدي كله، وليس القسم السفلي منه فقط، يقع في دائرة العيب. منذ ذلك التحول لم يعد أحد يراني عارية لا كلياً ولا جزئياً. هكذا امتد كرهي ليطال كل جسدي.

هذا الكره لم يكن متعلقاً فقط بما يميز جسدي عن جسد الذكر، بل ما كان يزيد من عمقه هو أن هذا الاختلاف كان يتجلى اختلافاً في الحقوق والواجبات بيني وبين إخوتي الصبيان. كان لهم الحق بالخروج إلى الشارع واللعب مع أصحابهم بكل ما يحلو لهم من ألعاب. كان يسمح لهم بالتلفظ بالشتائم والسباب، كان يحق لهم أن يرموا بثيابهم على الأرض من دون ترتيب، كان يحق لهم أن يتركوا صحونهم على الطاولة بعد الطعام .... بينما أنا ما كان يحق لي أن أخرج إلى الشارع ولا أن أشتم أحداً ولا أن أرمي ثيابي كيفما ك ان ولا أن أترك صحني على الطاولة. كان علي قبل أن أذهب إلى المدرسة أو إلى اللعب أن أقوم بكل ما يعتبر من اختصاص الإنسى (المرأة)، يعني كل ما يتعلق بالعمل المنزلي من تنظيف وترتيب، بما فيه ترتيب ما يكون مبعثراً من أغراض إخوتي وطبخ وغسيل وجلي و .... كل ذلك جعلني أ كره ذاتي وأكره الساعة التي ولدت في ها أنثى. كنت أردد دائماً، في سري : «ليتني لم أولد».

هذا الوضع لم يثنني عن الاهتمام بدروسي . لكن اجتهادي هذا كان نوعاً من الإثبات للآخرين أنني لا أختلف عن إخوتي الصبيان حتى ولو مارسوا عليّ مفاعيل التمييز . أما

على صعيد الجسد، فصحيح أني ما عدت أتعرى أمام الآخرين، لكني، وفي الوقت نفسه، كنت أحاول ألاّ أظهر ما يحدث في جسدي من تحولات . أصبحت أرتدي القمصان الواسعة. محفظتي التي كنت أحملها بيدي أو أعلقها على ظهري أصبحت أعبطها بذراعي جاعلة منها درعاً، لا ليحميني، بل ليستر القسم العلوي ا لأمامي من جسدي حيث التحول. كتفاي أصبحا منحنيين إلى الأمام لأن هذه الانحناءة تخفي البراعم الصغيرة. أحياناً كثيرة كنت أرتدي ثياباً ضيقة جداً تحت ثيابي الظاهرة وذلك من أجل خنق كل النتوءات ولكي يظهر صدري مسطحاً كصدر أي ذكر.

اليوم الذي سأضطر فيه إلى ارتداء الص درية، كان لا بد آتياً على الرغم من كل محاولاتي لتأخيره. لكن أول صدرية لم أرتدها قبل أن تدخلت في تغيير شكلها؛ حاولت قدر المستطاع أن أمحي الترويسات التي تجعل الثديين يظهران من وراء الثياب وكأنهما يتحديان الفضاء الخارجي، حاولت أن أبلطحهما كي لا يعلوا كثيراً عن سطح جسدي. ترافق ذلك مع انحناءة أقوى في الكتفين نحو الأمام لدرجة أن والدي تدخل مرة ونبهني إلى الأمر : «جلسي ظهرك وإلا أصبت بالحدب، حاولي أن تردّي دائماً كتفيك إلى الوراء ». هل كان والدي يعرف لماذا أحودب ظهري؟ هل كان يشعر بمعاناتي؟

7

أعرف أن أمي كانت منسجمة تماماً مع الدور الذي خصها به المجتمع، لم تكن تعاني، كانت تعرف جيداً كيف تربى البنات وكيف يحافظ على البنات، شرف العائلات . لم أسمعها يوماً تنتقد قاعدة اجتماعية أو تربوية . أما والدي فما كنت أدري ما يجول في خاطره، لم يظهر يوماً رفضه لي كأنثى. كنت حين أمرض ألجأ إليه، فيفحص جسدي كما يفحص جسد أي من أخويّ، لم ألاحظ أنه عامل جسدي بشكل مختلف . هل مهنته أثرت على طريقة تعاطيه مع الجسد؟ هل كان يتكل على والدتي في الأمور التي تتعلق بتربية البنات؟ ما كنت أفهم تماماً موقفه. كل ما أذكره من تلك المرحلة هو ابتسامته حين كان ينظ ر إلي، وتشجيعه لي حين كنت أعود إلى البيت ومعي دفتر العلامات الذي كان دائماً ممتازاً، كان يقبلني على جبهتي ويربت خدي. كنت إلى جانبه أشعر بدفء يعتري جسدي، دفء لا أشعر به حين

كانت والدتي هي التي تقبلني . فرويد يقول، وقد علمت ذلك لاح قلً، إنه الأوديب، إنه تعلق البنت بأبيها. لمَ لا؟ كان شعوراً لذيذاً. وإذا تعمقنا أكثر وغصنا في التحليل إلى ما وراء هذا التعلق، ظهر مفهوم المحرم l inceste مفهوم الحب الآثم وهذا ما سنعود إليه . كنت إذن، في تلك المرحلة أرفض تحولات جسدي، لكني كنت أشعر بشكل غامض أني أقبلها، ربما كان ذلك القبول على صعيد اللاوعي . كنت أقبلها لأنها تجعلني كأمي التي تستأثر بوالدي . هل كنت أغار منها؟ ربما . هل كنت أريد والدي لي وحدي؟ ربما أيضاً . وعيي للموضوع غامض جداً وحتى لاوعيي.

8

في تلك المرحلة حدث التحول الثالث الذي نقلني غصباً عني ورغم رفضي العنيف إلى مرتبة النساء. هذا الحدث الذي حولني إلى إنسى شكّل عندي صدمة كبيرة . حين رأيت الدماء تسيل من بين فخذي وتلطخ ثيابي الداخلية، ارتعبت، تجمدت لا أدري ماذا أفعل ولا أجرؤ على لمس ما أراه يسيل مني . اغتسلت أولاً، ظناً مني أن الأمر سينتهي هنا، لكن الدماء استمرت بالسيلان. لم يعد أمامي إلا اللجوء إلى أمي . اخترت أمي هذه المرة لأنني حدست أن الأمر إنسويٌّ محض . لجأت إليها بخجلٍ كبير، أخبرتها بما يحدث معي . لم تقل أي شيء بل هزّت برأسها كأنها تريد إفهامي أنها لم تفاجأ بالموضوع . ثم توجهت نحو خزانتها، فتحتها، أخرجت منها رزمة من المناشف البيضاء كالهفهاف وأعطتني إياها قائلة: «استعملي واحدة الآن وكلما دخلت الحمام غيريها . لا تدعي أحداً يرى هذه المناشف الصحية. كلما غيرت واحدة، انقعيها بالماء وفي آخر النهار تضعينها في الوعاء المخصص لذلك، سأدلك عليه، تغسلينها بالماء والصابون وتتركينها على النار تغلي لمدة ربع ساعة، بعدها تشطّفينها جيداً من الصابون وتنشرينها كي تجف، ومن الأفضل أن تنشر في الشمس كي تطهر. هذه الفوط الصحية يجب أن تظل دائماً نظيفة جداً كي لا تسبب لك الالتهابات . حين ينتهي الميعاد تضعين هذه الفوط في مكان خاص لأنك ستحتاجين إليها في مثل هذا التاريخ من كل شهر».

أدركت بعد الحيض الأول أنني أصبحت إنسى بكل معنى الكلمة، لقد حولني جسدي طبيعياً إلى إنسى، لكنه اجتماعياً وتقليدياً كان قد حولني إلى امرأة — التي هي كلمة تعني تأنيث النكرة (راجع الملحق). لم أتحمل هذا التحول الأخير، لم أستطع قبوله وقررت رفض الواقع كلياً وارتميت في أجواء الدرس أجهد نفسي فيه كي أعوض عن الدونية التي رماني فيها جسدي. كان رفضي لأنوثتي عظيماً وظهرت نتائجه بسرعة إذ انقطع الطمث عني لمدة سنة تقريباً.

هذا الانقطاع شغل بال أمي كثيراً، أما والدي فكان يردد : «الحالة عادية وطبيعية، ستعود الأمور إلى مجراها الطبيعي... الطبيعة تنتصر دائماً». هل كان يعلم أن انقطاع العادة الشهرية عندي هو رفضي لأنوثتي؟ هل صحيح أن الرفض يؤثر إلى هذه الدرجة؟ علمت لاحقاً أن النفسي يؤثر جداً على الجسدي . تعلمت ذلك في الكتب واختبرته أيضاً في حياتي . هل كان والدي يعرف؟ ربما، لكنه لم يصرّح ولم يشرح لي أي شيء.